هل «فكرة الإله» غير أخلاقية؟

جون كريستوف أتياس
ترجمة: يحيى بوافي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

هل «فكرة الإله» غير أخلاقية؟[1]

المؤلّف: **جون كريستوف أتياس**[2] (Jean-Christophe Attias)

ترجمة: **يحيى بوافي**

1[1] Jean-Christophe Attias, «Dieu n'est pas moral…», dans Le Bien et le Mal. Textes fondamentaux, Le Point-Références, décembre 2016 – janvier 2017, p. 13-15

Jean cristophe Attias 2: أستاذ كرسي الفكر اليهودي الوسيط بالمدرسة العملية للدراسات العليا (EPHE) من بين مؤلفاته نذكر: Les juifs et la Bible(Editions du Cerf,2014)

عديدة هي أشكال الرعب التي تم ارتكابها باسم "الله"، لذلك فإن الإلزام الأخلاقي للمؤمنين وللملحدين على السواء، هو المتمثل في أنهم سيكسبون الكثير إن أعاروا اهتمامهم للتجربة التاريخية وأخذوها في الحسبان، كما يشرح ذلك جون كريستوف أتياس.

هل تعلمون أن الأطفال غير المتدينين يظهرون أكثر اتصافا بالإيثار الغيري مقارنة بأترابهم ممن نشأوا داخل أسرة من المؤمنين. ذاك ما كشفته على أي حال دراسة أدارها جون دوسيتي Decety Jean، الأستاذ بقسم علم النفس بجامعة شيكاغو، والتي تم إجراؤها في كل من كندا والصين والأردن، وتركيا والولايات المتحدة وفي جنوب إفريقيا. أليست هذه النتيجة مبعث اندهاش؟ شخصيا أعترف بأن ذلك لم يفاجئني في شيء. كلا، الله ليس أخلاقيا. ولا نرى أيّ سبب يجعله كذلك، خصوصا إذا كان إله الديانات التوحيدية. إن جماعة الإيمان تخلق على نحو طبيعي بين أعضاء نفس الكنيسة ضربا من التضامن يُقصي بالتعريف مرتكب الخطيئة، ومن ليس بمؤمن ومن له إيمان آخر غير إيمانها. وإذن، فالله ليس أخلاقيا في شيء، والإعلان، كما يفعل البعض، عن كون كتاب العهود، باعتباره الكتاب المقدس لليهود والمسيحيين، قد "ابتكر" حقوق الإنسان، على سبيل المثال، هو من باب الحماقة، ويصير الأمر كذلك بدرجة أكبر، خصوصا عندما نعلم أن 84 بالمئة من سكان العالم يُعرِّفُون أنفسهم بأنهم مؤمنون.

سيقدّم المعترضون بكامل السهولة اعتراضا على نزعة التشاؤم التي يبدو أنني جاهرت بها، عن طريق بعض التعاليم "الدينية" الرائعة والمنتقاة على النحو الذي ينبغي ويجب، من قبيل: "عليك أن تحب قريبك كما تحب نفسك عينها" (سفر اللاويين، 19، 18). صحيح أن هذا الأمر يبقى في غاية الروعة. لكن للأسف لا أحد يولي اهتمامه لتعريفات وتحديدات هذا "القريب" المتباينة، بل المتناقضة، كما قدمها المفسرون، عبر توالي القرون؛ هل هو قريبي، أم إنه يشمل البعيد عني أيضا؟ هل هو من يشبهني، أم من لا يشبهني في شيء أيضا؟ هل يكون هذا الـ "قريب" هو عدوي؛ والكافر والوثني كذلك؟ وما الذي يعنيه إذن قول "أحبَّه كما تحِبُّ نفسك عينَها"؟ هل تعني حُبَّهُ أكثر من الذات عينها إلى حد التضحية بها من أجله؟ أم حبه وصولا إلى حَدِّ بِعيْنه دون بلوغ درجة الموت لأجله؟

كل شيء ونقيضه

إن ما يبقى باعثا على السخرية والتهكم أكثر من أي شيء آخر في هذا الأمر، هو أن يوجد في الأخلاق العظيمة للإله الطيب أو الخيِّر مبدأُ يَظْهر أن الناس يختلفون بصدده أشد الاختلاف داخل التقليد نفسه.

هناك أولا "الرسميون"، أولئك المرخص لهم من قبل العبادات "الكبرى" الذين يبقى تحيُّزُهم التقريظي[1] واضحا، فَمِن الأصلح أن يتم تقديم الوجه الأكثر ظرافة للعالم، مع التذكير بأن الله لم يطلب منا إلا أن يحبَّ بعضنا بعضا، بل حتى في العمق، وفيما وراء اختلافاتنا، فإنّ لنا الإله نفسه. لن نقف مطولا عند استثناءات القاعدة المعلنة المثيرة للعواطف، وهي استثناءات عديدة معايَنَة ومؤكَّدَة بالتجربة، بل سنتصرف كما لو أننا لا نجد كل شيء وضده في النصوص "الكبرى" للتوراة والقرآن وكتب مقدسة أخرى: الحب والكراهية، والرحمة بقدر ما يوجد أَمْر بِأَشْكَالِ عُنْفٍ دون اسم، والعدالة بقدر البربرية والهمجية. وسنتناسى المجازر الكبرى التي تم اقترافها باسم هذا الإله، سواء اليوم أو بالأمس، عندها سيسارعون إلى القول: لا علاقة لذلك بالله، وأنه "انحراف"، وهو "انحراف" غالبا ما يقدم لنفسه مساحات انطلاقا من نفس القاعدة.....

وعند الطرف الآخر من الطيف نجد الآخرين، أولئك الذين من دون ممارستهم لهذه العقائد ولا انخراطهم فيها، يجدون في أنفسهم قسطَ عناءٍ في القطع مع كل الروابط التي تربطهم بالتقليد الديني، الذي كان آباؤهم وأسلافهم من أتباعه في يوم من الأيام. إنه الوفاء في حده الأدنى، أو ما يَفْضُلُ منه عند نهاية السباق. وأنتم أعلم بالقاعدة التي تقول بأن الدين عندما يتلاشى تبقى الثقافة، وعندما تغيب الثقافة، فإن الأخلاق هي ما يَفْضُلُ في النهاية. وأيّ معنى لذلك سوى أن تجعل من الأخلاق مأدبة إستهلَكَ آخرون قبلك أجودَ ما فيها، إن الأمر لا يعدو كوْنَهُ مجرد تلاعب بالكلمات. لقد سبق لكم جميعا أن سمعتم اليهود الملحدين يقولون، بأن شيئا واحدا بقي لهم من الديانة اليهودية هو «الأخلاق اليهودية»، وبمجرد ما تطلبون منهم التصريح بمبادئها، ستجدون، بنظري، صعوبة في تَبَيُّن وتمْييز ما يمكن أن يمتلكوه بشكل نوعي وخاص، باعتباره «يهوديا» على وجه الدقة.

ما الذي ستكونه في واقع الأمر «أخلاق» ليست مبادئها كونية بشكل حقيقي؟ ألن تكون إذن أخلاقا يهودية تفرض نفسها على اليهود؟ وأخلاقا إسلامية تفرض نفسها على المسلمين؟ وأخلاقا أخرى كذلك تكون صالحة للمسيحيين والبوذيين والمجوس[2]؟ وأخلاق ذاك شأنها، لن تخرج عن كونها أحد أمرين: إما أن مبادئها تبقى هي نفسها، وفي هذه الحالة لن تكون هذه الأخلاق بصيغة الجمع، إلا أخلاقا واحدة بصيغة

1 Apologie: تخصص يتخذ كهدف له الدفاع عن الدين في مواجهة الهجمات التي يكون عرضة لها.

2 المؤمنون بالإله أهورا مازدا Ahura Mazda، الذي كان يحظى بالإعجاب في إيران إلى حدود مجيء الإسلام، وهو اسم آخر للزارادشتيين.

المفرد، لا تتمتع بأي طابع نوعي أو خصوصي، وإمَّا أنها لن تكون كذلك، وعندها سنكون متأرجحين داخل نزعة نسبية إقصائية لكل أخلاق حقيقية. لذلك ليس من المدهش في شيء أن يكون المؤمنون الصغار، في ظل هذه الشروط هم الأكثر شرا، من رفاقهم العلمانيين. وسيكونون، فضلا عن ذلك، أقل شرا، إن نحن علمناهم النفور من الخطيئة، الذي ليس له علاقة إلا قليلا مع الإلزام الأخلاقي، لأنه خشية من الله أكثر بكثير مما هو خشية من الشر، و بالتالي يمكن أن ينقلب سريعا إلى مَقْتٍ لمرتكبي الخطايا.

الأخلاق والكونية

ومادام الأمر كذلك، فإنني لا أدافع في شيء عن كون الخاصية الكونية تظل بشكل آلي في صف المقتضى والاستلزام الأخلاقي للملحدين. فأغلب المجازر التي تم اقترافها في القرن العشرين كانت عملا يحمل خَتْم الملحدين على أتم وجه، أولئك الذين كانوا يعتقدون فعلا في أسوأ مظاهر الرعب والترهيب، فضلا عن أننا لا نجد أي ملْحدٍ يحيا داخل الكوني، لسبب بسيط هو أن الإلحاد تجريد. هكذا يعيش كل من المؤمن والملحد داخل عالمه؛ أي عالم ثقافته، ولغته وتمثلاته المحدَّدَة تاريخيا واجتماعيا، وهو العالم الذي مهما قيل عنه، يبقى في العمق تابعا، ومكوناته لا تدعي أبدا الكوني إلا على قاعدة سوء الفهم أو لأجل خدمة غايات تسلطية، وربما لا نشرع في صيرورتنا «أخلاقيين» إلا عند اللحظة التي نقف فيها، بشكل صحيح، على مدى انعدام الكونية التي تطبع المبادئ التي تقودنا وتوجهنا.

إن كونية الإلزام أو المقتضى الأخلاقي لا تعدو أن تكون أفقا، هو من دون شك، أفق غير قابل لأن يتم النفاذ إليه وبلوغه. وكل واحد يحاول فعل ذلك بكيفيته الخاصة، مما يجعل الظروف الخاصة تحظى بكامل ثقلها الدلالي في ذلك، بل تجد حتى دلالتها الإيجابية. إننا نسير جميعا صوب نفس الهدف. وكل امرئ، سواء أكان ملحدا أو مؤمنا، سيسير مثقلا بما يحمل من ثقافة نحو هذا الهدف. وهي الحمولة الثقافية التي ليست مكوَّنة سوى من المعتقدات الدوغمائية، ومبادئ تعاليم معيارية تم تكرارها بشكل لا محدود، لكنها مكونة أيضا من تجارب تاريخية مفردة وفريدة في نوعها. إن اليهودي والمسيحي والمسلم وكل أولئك الذي يعتقدون في وجود مبدأ أعلى يتعالى عليهم، بإمكانهم، بل من واجبهم النظر إلى الخلف. وتذكُّرُ المِحْرَقات والأنهار التي مِلْؤُهَا الدَّمُ؛ سواء تلك المِحْرقات التي لم يَقْدِح نارَهَا سواهم، أو تلك التي كانوا هم من اكتوى بلظاها، وأنهار الدم التي أريقت منهم، أو التي أراقوها من الآخرين. لقد زعم هليل، وهو حكيم يهودي عاش في القرن الأول قبل ميلاد المسيح، وبداية القرن الأول بعد ميلاده، أن اليهودية إنما تُوجَز وتتركَّز في مبدأ وحيد: «ما لا تريد أن نفعله بنفسك، لا تفعله بقريبك»، ويضيف: «وكل ما تبقى مجرد تعليق». وأقول من جهتي: «تذكر ما تم فعله بك، ولا تفعله لقريبك».

عندما يكون يهودي متمتعا بالقدرة على تذكر ما تم فعله بما يملك في الماضي، سيكون من الواجب عليه ألا يعاني أدنى لبس في تحديد الموقف الواجب اعتماده وتبنيه في مواجهة لاجئ هارب من التقتيل أو فلسطيني يعاني الذل والهوان. عندها سيكون في إمكاننا الحديث، ولكن بمعنى مختلف، عن «أخلاق يهودية»، والتي مع أنها كذلك، تبقى أخلاق كونية. وعندها سيكون المؤمن حرّا فيما بعد في أن يعيد قراءة هذه النصوص، في ضوء هذه التجربة. وإذا ما كانت أبواب التأويل تبدو أحيانا موصدةً برتَّاج ثقيل، فإن ضربة خفيفة على الكتف التفسيرية للنص المقدس، التي تنهل طاقتها من تجربة تاريخية تم تحمُّلُها في تفاصيلها، قد تكون كافية أحيانا، لأن تُشْرِعها على مِصْراعيها.

بوجيز العبارة، نقول إنّ الله ليس أخلاقيا، لكن بمقدورنا مساعدته على أن يصير كذلك. أما بالنسبة إلى المؤمنين الصغار، فلا ينبغي أن نعلِّمهم الدين فقط. ما دامت جُرعة قليلة من التاريخ لن تُلحق بهم أي أذى يذكر.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569
الهاتف : 54 99 77 537 212+
الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020